[14]

رسالة نصح وإشفاق إلى الأخوات الطاهرات

(20 صفر 1433هـ)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الأخيار وصحابته الأبرار، أما بعد؛

فإلى شقيقات الرجال، العفيفات في خدورهن، أخصهن بهذا المقال لما لهن علينا من حقٍّ في النصح والتوجيه والمواساة، في واقع سخّر الكفار والمرتدون والعلمانيون وغيرهم إمكانياتهم لحرب مبادئ الطهر والعفاف، بل وصل الأمر إلى ما هو أشر من ذلك وهو أن بعضًا ممن ينتسبون للعلم والدين من أهل الإسلام تماشوا مع هذه الحرب، بفتاوى وأقوال تتفطر منها قلوب الموحدين الغيورين على أعراضهم وأعراض المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكلما كمل الإيمان في قلب المؤمن كملت غيرته، ولذلك كان أغير البشر سيد الأولين والآخرين إمام الموحدين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس أحد أكمل منه غيرة من العالمين، ولا أغير منه صلى الله عليه وسلم إلا الله جل وعلا، جاء عند البخاري: (قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه والله أغير مني" ونرى في هذا الزمن والله أعلم أن المجاهدين هم أكمل أهل الإسلام غيرة ولا نزكيهم على الله، فلا بد أن يكن شقائق الرجال من النساء المؤمنات المناصرات للجهاد في سبيل الله أزواجًا كنّ أو بنات أو أخوات أو أمهات أن يكنّ في أعلى مقامات العفة والحياء.

وسوف نقف إن شاء الله في هذا المقال وغيره على قصص من الكتاب والسنة ونسأل الله التوفيق والسداد:

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)}.

إن المرأة المسلمة أُمرت من الله سبحانه وتعالى بالقرار في بيتها حفاظًا على عرضها وشرفها، وألا تكون سببًا في فتنة الرجال وإشغالهم عن الذي كلفوا به في إقامة المجتمعات، وهذه الآيات الكريمة تبين لنا ضرورة خروج المرأة من بيتها وكيفية حالها عند خروجها، فأولاً وصفت الحال عن اجتماع الرجال بالنساء وهو ما يسمى بالاختلاط، وكيف تحمي المرأة نفسها من هذه الحالة البذيئة التي يختلط فيها الرجال بالنساء في الأماكن العامة، وجاءت القصة بالبئر التي يجتمع الرعاة ليسقوا غنمهم، كمكان عام يجتمع فيه الصالحون والطالحون، ومثل ذلك الأسواق والمستشفيات والأماكن العامة وغيرها، إذا اضطرت المرأة لهذه

الأماكن فقد صورت القصة تجنب النساء بغنمهن حتى لا يختلطن مع الرجال، بل ينتظرن الأوقات الطويلة حتى يذهب الرجال ويصدر الرعاء، ثم يأتين ليسقين، وهذه الصورة تصف لنا أعلى مقامات العفة والحياء عند تلك النساء، وتلك العادات الطيبة التي تصان بها المجتمعات من الرذيلة بالشهوة الحيوانية التي لا تميز بين الحلال والحرام، فعندما جاء موسى ورأى هذه الحالة وهذه الظاهرة، جاء ليتحقق من السبب الذي عزل هاتين المرأتين عن الرجال؛ لأن واقع موسى الذي خرج منه في أرضه يختلف عن هذا الواقع، فجاءهن وقال لهن قولاً مفهومًا لا يحتاج إلى استرسال في الكلام، وإيضاح وتبيين؛ لأن هذا الموقف بين الرجل الغريب والمرأة هو موطن شبهة يحذر منها كل مؤمن، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة صفية عند البخاري: (عن صفية بنت حيي قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفًا، فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت، فانقلبت فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "على رسلكما إنها صفية بنت حيي" فقالا: سبحان الله، يا رسول الله. قال: "إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءًا أو قال شيئًا".

فموسى عليه السلام أحب أن يستفسر عن هذا الموقف فقال: "ما خطبكن؟" ولم يزد على ذلك، وهذا يبين عفة موسى عليه السلام وطهره من أن يقع في الرذيلة، وجعل النساء يأمنّ جانبه، فردّتا عليه بجواب يُذهب الشك ويبين طهرهن وعفتهن، وسبب خروجهن من بيتهن، وأنه ليست لهن بعادة، ولكن الضرورة هي التي أخرجتهن، فقالتا: {لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}، ففهم موسى هذا الأمر العظيم وهذه الأخلاق الكريمة النادرة في المجتمعات، التي لا يوفَّق لها إلا المؤمنات الصادقات، فكان رده أن سقى لهما، وأمنتاه على غنمهنّ، فسقى لهما ثم أعاد الغنم إليهن، وهنا قال بعض المفسرين أن في هذه القصة أحكام ثلاثة {لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ} أعطَتْ حكمًا، و{وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} أعطتْ حُكْمًا، و{فَسَقَى لَهُمَا} أعطت حكمًا ثالثًا.

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل، فمن الحكم الأول نعلم أن سَقْي الأنعام من عمل الرجال، ومن الحكم الثاني نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة، ولا تؤدي مهمة الرجال إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه المهمة {وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}.

أما الحكم الثالث فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنساني إذا رأى المرأة قد خرجت للعمل، فلا بد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها.

وهناك لفتة عظيمة عن الطهر والعفاف في سياق الآيات التي بعدها، وبعد أن ذهب موسى عليه السلام إلى ظل شجرة يستظل

بها وهو غريب طريد شريد، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء" فعندما رجعتا المرأتان إلى بيتهن رجعن في غير عادتهن سألهن الأب، وهذا واجب على كل وليّ أن يتفقد من يعول، وأن يرى المتغيرات في حالهن ويسألهن عن حالهن بغير شك ولا ريبة، ولكن النساء لا يستقيم حالهن، ولا يتذكرن ما لهن وما عليهن إلا بوليّ عليهن؛ ولحاجتهن لذلك، فعندما أخبرنه بالقصة بعث الأب بابنته لتدعو موسى عليه السلام، فوصف لنا القرآن هذا القدوم العفيف من هذه المرأة الطاهرة الشريفة، وكيف أكرم الله صفة الحياء عند النساء بأن وصفها بالقران وصفًا دقيقًا للحال، فقال سبحانه: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [جاءت تمشي على استحياء، قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع خَرَّاجة ولاجة (أي الجريئة السليطة)]، وسبحان الله كيف يكمل جمال المرأة بالعفاف والحياء، الذي إذا فقد من المرأة فقدت كل معاني الأنوثة، ومن أعظم دوافعها المجلبة لها هو الدين؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: "فاظفر بذات الدين تربت يداك" فنشاهد هذا الحياء الذي جاءت به إلى موسى عليه السلام في كلامها واختصارها بالمفيد الذي ليس فيه لبس، وانتقاء للكلام الذي لا يجعل للشيطان باب في التشويش والتحريش، فقالت كلامًا واضحًا: {قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}، ويبين لنا القرآن في هذه القصة العظيمة أن الكلام بين موسى عليه السلام وبين تلك المرأة انقطع، ولم يكن هناك أخذ وعطاء وتجاذب بالكلام، كـ (من أين أنت؟ وماذا جاء بك؟ وهو يرد عليها أين بيتكم؟ وهل قريب أم بعيد؟ وغيره من الكلام) بل انقطع الكلام، وساق لنا القرآن القصة بوصول موسى إلى الأب {فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ} وبدأ موسى يبين للأب حاله ثم أرادت الفتيات أن يزول عنهن الضرورة من الخروج من بيوتهن، بأن يستأجر الأب موسى عليه السلام راعيًا للغنم بدلاً منهن، وقالتا لأبيهن ما رأين من حاله عليه السلام: إنه قوي أمين؛ وهاتان الصفتان مرغوبتان عند كل من له حاجة يريد من غيره أن يقضيها له، فرضي الأب بهاتين الصفتين من موسى عليه السلام، مع العلم أنه مطارد مشرد، ومن قبيلة مستضعفة في مصر من الفراعنة، ومع هذا كله كان العرض من الأب أن يستأجر موسى ثمان سنين أو يزيد سنتين من عنده، إن رأى ذلك، بأن يرعى له الغنم ويكون الأجر هو أن ينكحه إحدى ابنتيه {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} فرضي موسى بهذا العرض لحاجته أولاً كرجل مطارد يريد أن يستقر ويأمن، ثم لما رأى من ابنتي الرجل من الطهر والعفاف الذي يجعل كل مؤمن غيور يرضى بهن؛ لأنهن بحيائهن وعفتهن سيؤمننّه في عرضه إذا غاب عنهن، كما قال تعالى في صفات الصالحات {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ}.

فنصيحتي إليكن يا غريبات هذا الزمان المؤمنات الصالحات:

أولاً: تقوى الله في السر والعلن والفعل والقول.

ثانيًا: القــرار في بيــوتكن إلا لحاجــة، وخاصة من كــان زوجها أسيرًا أو نافرًا لثغر من ثغـور الإسـلام، فـإن بلاء الأسر أهـون من بلاء العـرض، وإن الطـواغيت لن يسـتطيعوا بـإذن الله أن يـؤثروا على أحد من جند الله المجاهدين إلا عن طريق عرضه، فيجب على المرأة القرار في بيتها وأن تـؤمن بربها وتتوكل عليـه، كما قـالت هاجر عندما ذهب عنها إبـراهيم عليه السـلام فقـالت: [أألله الـذي أمرك بهذا. قال: نعم. قالت: إذن لا يضـيعنا ثم رجعت] فهو وحـده سبحانه القـادر على أن يفـرج عن ذلك الـزوج أو الابن أو الأب من أسره، أو يجمعه بأهله في ثغر من الثغور، أو يعيده إلى أهله نــائلاً ما نـــال من أجر أو غنيمـــة، فقضـــية المجاهـــدين ليس لها علاقة بـأبواب الطـواغيت أن تطـرق، سـواء بالـذهاب إلى مكـاتبهم، أو الاتصالات عليهم، بل قضيتهم هي قتال الطواغيت وعـداوتهم من أجل لا إله إلا لله، فليس لها باب أن يُطرق سوى باب الله سـبحانه وتعـالى، بل إن الطـواغيت يتلـذذون ويـرون نشـوة النصر عنـدما تطـرق أبـوابهم من قبل نسـاء المجاهـدين، فليس لخـروج هـؤلاء الأسـود إلا اللـه، فـالزَمن الثلث الأخـير من الليل وأدبـار السـجود والصلوات، بـدعاء الله رب العـالمين، مَن بيـده ملكـوت السـماوات والأرض، وابشرن فلن يخيب الله المؤمنين.

ثالثًا: الله الله بالحجاب والتبذل فيه، وتجنب النقـاب إلا للنسـاء الكبــيرات اللاتي بلغن سن اليـأس، وأما اللاتي ما زلن فتيــات فلا يجعلن لأحد عليهن سـبيلاً، ويتجنبن لبس الضـيق وإن قل ضـيقه، والذي يظهر المفاتن أو شيئًا منها، ولو كـان أمـام النسـاء، بل كل ما كـان الكســاء قطعة واحـدة كالمســماة "بالجلابيــات" الواســعة الطويلة التي لا تظهر مفاتن المرأة كان أكمل لعفافها وأكرم لها.

رابعًا: تجنب الكلام مع الرجـال، مهما كـان ذلك الرجل من غـير المحارم، عالم أو عامي إلا بمختصر عند الضرورة، ولا بأس لو بـــدأ الكلام بغـير السـلام من المـرأة، وأن يُحضَّـر الكلام لتجنب التعتعة والتلعثم.

خامسًا: الحذر من المراسـلات الـتي لغـير حاجة ماسـة؛ كـالعلم والاسـتفتاء، وفي الكتب والأشـرطة ما يغـني المـرأة لاحتياجاتها الفقهية الخاصة بها.

أسأل الله العظيم أن يوفق نساءنا لكل خير، وأن يسترهن ويحفظهن من كل ذي شر، وأن يجعلهن من الصالحات المعينات لنا على كل خير، وأن يجعلهن قرة عين لنا في الدنيا والآخرة.. آمين.